الفصل الرابع
د. إخلاص الشجراوي

الإهداء

إهداء لمن تملك طموحاً يعلو السماء هديل ناصر

****

السعادة

هي ذلك الشيء الغامض الذي لا يعرفه إلا القلائل ولا يحس به إلا القليل فيكونون طيوراً على الأرض ونجوماً متلألئة في السماء، لا يستطيع أحد إدراك سعادتهم لأنها مخزنة في أعماقهم وتنبع من دواخلهم وتنير وجوههم وتشع من جميع حركاتهم، هؤلاء من عرف الطريق وغير السبل وتسلق الجبال واعتلى السماء ورسم طريقاً يختلف به عن الكثيرين ولَم يأبه بما يجري حوله فابتسم ومضى في طريقه متقدماً.

****

لعنة الحاجة

لعيون ذوي الحاجة بريقاً دامعاً حزيناً يخفي وراءه ألما وحزناً شديداً، كم يأمل ويطمح للقليل، وهذا القليل في نظره وعيونه الشيء الذي من الممكن أن يأخذه من قاع الأرض إلى وجهها ليعيش حياة على الأقل ولو حياة بسيطة تحتوي أقل القليل من تلبية الاحتياجات العادية التي لا تشقي الناس، متأملاً بساحة من الرفاهية وتحقيق الذات وإشباع الرغبة في ملء متطلبات النفس والحياة، وهذه الدموع الخفية لا تظهر أبداً إلا داخل القلب الحزين الباكي لأنه لا يستطيع إخراجها حرجاً من شماتة الناس فيتركها لقلبة الدفين ينزف دماً بدلاً من دموعه.

****

رغبة

تأمل طويلاً ناظراً أمام الساعة سارحاً في أحلامه البعيدة، متشائماً من تحقيقها بعيدة في علوها، تسابق ناطحات السحاب ،تأمل أكثر وأكثر وأطال التأمل، فجحظت عينيه وبرقتا أكثر وأكثر ثم نهض باتجاه الحائط وبلا شعور ضرب رأسه بالحائط مراراً إلى أن نزف دماً كثيراً ولَم ينتبه لذلك، واستمر الغضب الدفين في الاستمرار والزيادة إلى أن فقد وعيه وامتلأ المكان بالدم، وعندما أفاق رأى منظر الدم من حوله فأذهله الأمر، لم يكن يتصور أنه من قام بفعل ذلك بنفسه، فصرف عينيه صوب المرآة فوجد أنه قد حطم رأْسه الصغير فابتسم ثم أغمي عليه مجدداً، ولكن هذه المرة لم يفق منها فلقد غلبته رغبة الانهزام والهروب من ضغوطات الحياة من أن يعيد الفكرة في العلو والطموح فاختار الأسهل ليفارق الحياة بلا رجعة.

****

سنين الضياع

مرت السنين، سنة وراء سنة كسرعة البرق والحلم الذي طالما انتظرته طويلاً ورسمته أمام عيني بأحلى الألوان واعتقدت أنه أصبح أقرب وكل سنة يبعد أكثر وأكثر، ولكن الإصرار على الوصول لذلك الحلم يبعد ولَم أتريث يوماً لأعيد الحسابات، فكل الطرق والوسائل والأساليب وضعت لذلك البعيد وبعد انقضاء المدة طويلاً وشاب الشعر بدا الكبر يظهر والأوجاع بالظهور ولَم تعد القدرة على العطاء كما كانت وأصبحت الأعمال أثقل، لم أعد أطبقها بعد ما كانت شيء بسيط.

وقفت برهة لأنظر أين وصلت من هذا البعيد فعرفت أن البعيد كان بعيداً وظل بعيداً ومرت السنين وأكلت العمر والشباب والبعيد بقي بعيد.

****

الاتصال الأخير

أخبرها أنه ذاهب في مهمة خاصة سرية ولا يستطيع أن يوضح أكثر من ذلك وأنه سيقوم بالاتصال حالما يصل إلى المكان المنشود.
وطال الانتظار ولَم يتصل ومرت الأيام، يوماً تلو اليوم ولَم يكن هناك أي اتصال، حاولت جاهدة أن ترسل إليه عبارات الخوف والاشتياق، ولكنه لم يأبه بها ولَم يرد عليها إلى أن جاء في يوم ورن هاتفها وإذا به يتصل ويخبرها أنه لم يعد يريدها أو يريد أي اتصال معها بدون أي سبب وتركها هائمة حائرة مرتعشة كمن صب الماء الباردة على جسمها الملتهب شوقاً وحرارة لإطفائه.

****

اللقاء

التقينا وكلنا شوق وحنين لنتبادل الأحاديث والمواضيع، بكل حب جمعتنا أحلى اللحظات، فأخذنا نرسم طريقاً لِغَدٍ يشملنا ويجمعنا كيلا نفترق، بنينا بيتاً جميلاً مزهراً، براقاً، رسمنا الألوان وأطياف قوس قزح، وضعنا الفراشات الملونة في كل مكان، نثرنا أحلى أنواع العطور في كل النواحي، زرعنا الأرض أحلى باقات الورود، وبعدها افترقنا.

لم يكن شيء يجعلنا نختلف وكنا متوافقين تماماً بالرغم من الاختلافات، كنّا كما أننا واحد، وفِي يوم لم يتصل فأعطيته عذراً وبقي على هذا الحال دون اتصال وكنت أخلق إليه الأعذار إلى أن جاء يوم والتقينا غرباء، لم يكن هو الذي جلست معه في هذا المكان، في هذا المقعد، عند هذه الطلة وأنغام الموسيقى، كان غريبا عني حدثني بلغة أخرى لم أفهمها لم يعد هو، كل شيء تغير، غاب طويلاً ليعود شخصاً آخراً لا أعرفه، وكنت أبرر غيابه وأنتظر يوم اللقاء ولَم أكن أدرك أنني كنت أنتظر يوم الفراق.

تكتب لي؟

كيف لك أن تكتب إليّ شيئاً لا يمكن قراءته ولا يمكن أن يفسر، شيء مبهم لا عنوان ولا طريق إليه ثم تأتي بتفاسير متعددة وكأن كل كلمة كتبت هي لائحةٌ من التعابير الواضحة ذات المعان التي لا تعطي إلا معنى واحداً ليستدل به الطريق، أيكون ما تكتبه صحيحاً، أم أنه الحقيقة التي تفسر نفسك بها ولا أحد يستطيع تفسيرها إلا أنت وَلَن يقرأ سطورها إلا أنت وتزمجر ويعلو مدى صوتك لأعالي السماء بأنك إنسان واضح وكل شيء مقروء ونحن من نجهل تفسير الأمور، فتبتعد عنا ولا تترك إليك طريقاً أو عنوانًا وتلغي أي صلة بك ثم تعاود لتكتب أنك إنسان واضح متسلسل العبارات والمعاني والكل قد أخطأ التفسير، وتختفي مجدداً وتعيد الكرّة مراراً ولا تحاول إطلاقاً أن تغير كتاباتك التي لا يفهمها إلا أنت.

****

تحرك !!

ماذا تنتظر وأنت واقف متجمد مكانك، ماذا تتوقع أن يحدث وأنت تطيل الانتظار، ماذا تريد أن يحدث وأنت متسمِّر في مكانك، أيعقل أن تهتز الأرض من مكانها وأن تشتعل النيران وأن تتحرك الجبال من مكانها لتتحرك؟
أيعقل أن تزهر الأزهار دون الماء؟؟
أيعقل أن تشرق الشمس دون ليل؟؟
فمتى ستبقى متحجراً، قم وأبداً ولا تنظر إلى الوراء ولا تسمع لأحد، قم وتحرك.

****

تسلُّط

كيف لك أن تتظاهر بالحكمة والأناة واتخاذ القرار...
كيف لك لتبدو ذاك الشخص المهم ذات الإنجاز العظيم..... كيف لك لتبدو أنك لا تخطئ وأنك على حق.... كيف لك أن تبدو متسامحاً ونشطاً وذو طاقة هائلة متفجرة... كيف لك أن تكون ذاك الشجاع الذي لا ينكسر... كيف لك أن تكون البطل المقداد...
تبدو كأسدٍ في الغابة لا يستطيع أحد الاقتراب منه أو حتى إلقاء النظرات عليه، وعند لحظات الحقيقة ينكشف الستار ليظهر التسلط على شكل حزين، شكل يبكي القلب ويدمع العين، شيء ممكن أن يكون مضحك.
كل هذا الجبروت والتسلط ما هو إلا ستار خارجي يخفي داخله انكساراً رهيباً، هذا الانكسار جعل منه إنساناً يخفي ضعفه بالتسلط على الآخرين وإنكار وجودهم ليثبت وجودة.

****

الخوف الدفين

كم منا يبدأ قلبه بالنبض السريع ونفسه بالاضطراب وعقله بالتشتت وأطرافه بالاهتزاز والارتعاش ولا يستطيع أن يرى بعينيه ويفقد الإحساس بالمحيط الذي حوله ويأخذ بالتلعثم وصعوبة الكلام وإخراج الحروف، لا يعلم لماذا ولماذا يحصل ذلك وما هي الأسباب التي أدت إلى ذلك؟

يحاول الهروب والتصنع ليبعد أنظار الناس عن معرفة حقيقته ولكن الخوف الدفين لا يمكنه من ذلك فيفضحه أكثر وأكثر وكلما حاول الابتعاد كلما زاد الاضطراب.

****

احتيال

سرق قلبها وارتحل بعيداً، لم يأبه بما فعل بمشاعرها وأحاسيسها، لم يلتفت إلى قلبها الذي كُسر، ذهب بعيداً يبحث عن أحلامه مع أخرى، راسماً إليها كما رسم لمن قبلها الحب والحنين وفيض المشاعر.

****